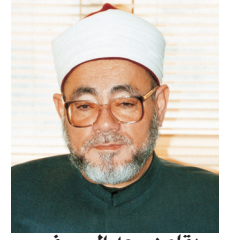


الإسلام منهج الشمول في عقائده وعباداته وتشريعاته



بقلم د. سعد المرصفي
أستاذ الحديث وعلومه

وبالحواس كلها مستعملاً لها في طاعته سبحانه!
ومن ثم تتسع للحياة كلها، فلا تقتصر على الشعائر التعبدية المعروفة!
بل تشمل كل حركة، وكل عمل ترتقي به الحياة، ويسعد الناس!

وتصوّر لنا أثر شمول العقيدة والعبادة في النفس البشرية.. بما يمنح العقل راحة، والقلب طمأنينة، والنفس أنساً، والروح سعادة.. ومن ثم يكون الاتصال بحقيقة المؤثرات الفاعلة في هذا الوجود. كما هي في عالم الحقيقة والواقع. فضلاً عن العنصر الأخلاقي الذي ينشئه هذا التصوّر ويثبته في القلب البشري، وفي الحياة البشرية!
ومن ثم تتكوّن من مجموعة الحقائق التي يتناولها هذا التصوّر في شمول وسعة وتفصيل صورة كاملة شاملة!

ويتكوّن تفسير جامع مفصل، لا يحتاج إلى إضافة من مصدر آخر، بل لا يقبل إضافة بحال من الأحوال.. ومن ثم ينبثق من هذه الحقائق شمول في مخاطبة الكينونة البشرية بكل جوانبها، وبكل أشواقها، وبكل حاجاتها، وبكل اتجاهاتها.. حتى ترد إلى جهة واحدة تتعامل معها في كل ما يتصل بشؤونها وأحوالها!

والكينونة الإنسانية حين تكون في الوضع الذي يطابق (الحقيقة) في كل مجالاتها تكون في أوج قوتها الذاتية، وفي أوج تناسقها. كذلك. مع (حقيقة) هذا الكون الذي تعيش فيه، وتتعامل معه، ومع (حقيقة) كل شيء في هذا الوجود، مما تؤثر فيه وتتأثر به.. وهذا التناسق هو الذي يتيح لها أن تنشئ أعظم الآثار، وأن تؤدي أعظم الأدوار!

تحقيق غاية الوجود: وتصوّر لنا واقع هذا التصوّر حياً في دنيا الناس، حينما بلغت هذه (الحقيقة) أوجها في المجموعة المختارة من المسلمين الأوائل، صنع الله بها في الأرض أدواراً عميقة الآثار في كيان الوجود الإنساني، وفي كيان التاريخ الإنساني.. حتى تسيّر الأمة

الإسلام منهج شامل ومتكامل في عقائده وعباداته وتشريعاته ونظمه وأحكامه، ففي الوقت الذي تعاني فيه الفلسفات والنظريات الوضعية من أوجه القصور والخلل، نرى أن الإسلام يتجلى في صفة الشمول والكمال كرسالة ربانية بعث بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم لإسعاد الناس كافة وإخراجهم من ظلمات الجاهلية وضيق الدنيا إلى سعة الإسلام وعدله.

أن تعزل قواعد التنظيم الحقوقي الاجتماعي الموجودة في القرآن في هذا العنصر الإيماني الذي يتخللها ويحيط بها!
نعم، إنه يمكنك أن تجرد هذه القواعد الحقوقية، لكنك تكون قد عطّلت الجهاز المتحرّك عن حركته وأفقدته روحه وحيويته، وقطعت شرايينه وأعصابه، وأصبح قطعة مفصولة عن أصلها للتحليل والتشريح، لا آلة فعّالة من جهاز كبير يعمل!

عل أساس هذه النظرية نضع العقيدة في موضعها من نظام الإسلام، وهي اللبنة الأساسية في بنائه، وهي التي تمدّ ما في أجزائه بالحياة وتحدّد اتجاهاتها ومعالمها.. وتتضمّن العقيدة الحقائق الكبرى التي دعا القرآن إلى الإيمان بها، أو التي وجّه الإنسان وأرشده إليها، وهي تصوّر الوجود.. وجود الله الخالق.. ووجود الكون والإنسان.. والصلة بين الله والكون والإنسان.. وكذلك الحياة وما وراءها من حياة أخرى أو المصير والجزاء.. والنبوة التي هي طريق معرفة هذه الحقائق الكبرى!

شمول العبادة: وتصوّر لنا شمول العبادة من أي جانب نظرنا إليها.. حتى تستوعب الكيان البشري كله، فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فحسب، أو ببدنه فقط، أو بقلبه منفرداً، أو بعقله مجرداً، أو بحواسه منفصلة. بل يعبد الله بهذه كلها!

وينبصر أثر الشمول في الحياة:

باللسان ذاكراً داعياً تالياً!

وبالبدن مصلياً صائماً مجاهداً!

وبالقلب خائفاً راجياً محبباً متوكلاً!

وبالعقل متفكراً متأملاً!

ويتجلى لنا شمول العقيدة من أي جانب نظرنا إليها.. باعتبار أنها تفسّر كل القضايا الكبرى في هذا الوجود.. القضايا التي شغلت الفكر الإنساني، ولا تزال تشغله، وتلجّ عليه بالسؤال، وتتطلب الجواب الحاسم الذي يخرج الإنسان من الضياع والشك والحيرة، وينتشله من متاهات الفلسفات والنحل المتضاربة قديماً وحديثاً!

قضية الألوهية!

قضية الكون!

قضية الإنسان!

قضية النبوة!

قضية المصير!

فإذا كانت بعض العقائد تُعنى بقضية الإنسان دون قضية الألوهية والتوحيد، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة، أو بقضية النبوة دون قضية الجزاء الأخروي، فإن عقيدة الإسلام قد عُنيت بهذه القضايا كلها، وقالت كلمتها فيها، بشمول واضح!

وان العقيدة في نظام الإسلام. كما يتجلى ذلك في القرآن والسنة النبوية. تتصل بجميع أجزاء النظام، فهي الأساس الذي تبنى عليه نظرتة أو نظامه الخلقي، وهي التي تُكوّن الأساس الفكري لعقلية المسلم، والأساس النفسي لسلكه.. ومنها كذلك تنبثق نظرتة إلى الحياة الاقتصادية، والحياة السياسية، وعلى أساس فلسفتها يُبنى نظامها!

وخالصة الأمر أن مضمون العقيدة له تأثير كبير في الحياة الإسلامية، سواء الفردية أم الجماعية.. ويلاحظ أنها تتخلل جميع سور القرآن بلا استثناء، وأنها تتخلل جميع أحكامه الأخلاقية والتشريعية، فلا تستطيع

على خطى هذه المجموعة المختارة! وهذا أمرٌ لا بد كائنٌ بإذن الله.. مهما يكن في الطريق من العراقيل.. ذلك أن وجود هذه الحقيقة في ذاته ينشئ قوة لا تقاوم؛ لأنها من صميم قوة هذا الكون، وفي اتجاه قوة المبدع لهذا الكون!

وحتى يصبح النشاط الإنساني حركةً واحدةً، متجهة إلى تحقيق غاية الوجود الإنساني.. العبادات.. العبادات التي تتمثل فيها عبودية الإنسان لله وحده في كل ما ينهض به من شؤون الحياة!

التجمع النفسي والحركي؛ وتصوّر لنا التجمع النفسي والحركي ميزةً كبرى من مميزات التصور الإسلامي.. بما أنه يتناول بالتفسير كل الحقائق التي تواجه النفس البشرية في الكون كله، ويتناول بالتوجيه كل جوانب النشاط الإنساني!

ففي الإسلام.. وحده. يملك الإنسان أن يعيش لدينه وهو يعيش لأخوته، وأن يعمل لله وهو يعمل لمعاشه، وأن يحقق كماله الإنساني الذي يطلبه الدين، في مزاولته نشاطه اليومي في خلافة الأرض، وفي تدبير أمر الرزق! ولا يتطلب منه هذا إلا أمراً واحداً: أن يخلص العبودية لله في الشعائر التعبدية، وفي الحركة العملية على سواء!

أن يتوجه إلى الله بكل حركة، وكل خالصة، وكل عمل، وكل نية، وكل نشاط، وكل اتجاه، مع التأكد من أنه لا يتجاوز دائرة الحلال الواسعة، التي تشمل كل طيبات الحياة! والله قد خلق الإنسان بكل طاقاته لتنشط كلها، وتعمل كلها، وتؤدي دورها!

ومن خلال عمل هذه الطاقات مجتمعة، يحقق الإنسان غاية وجوده، في راحة ويسر، وفي طمأنينة وسلام، وفي حرية كاملة منشؤها العبودية لله وحده!

منهج شامل

وتصوّر لنا الدين القيم (دين الأمة الوسط الخيرة) منهجاً شاملاً متكاملًا.. يشمل الاعتقاد في الضمير، والتنظيم في الحياة.. بدون تعارض بينهما.. بل في ترابط وتداخل يعزّض فصله بحال.. لأنه تجمع تظله الوحدة في كل ما يتصل به.. كما أسلفنا.. ولأن فصله..

الدين القيم منهج شامل متكامل يشمل الاعتقاد في الضمير والتنظيم في الحياة في ترابط وتداخل يعز فصله

أيضاً.. هو تمزيق وإفساد لهذا (الدين القيم)! ويطيب لنا أن نذكر ما قاله الأستاذ (محمد أسد) (ليوبولد فايس) في الفرق بين التصوّر الإسلامي والتصوورات الأخرى في هذا الشأن، وأثر ذلك التصوّر في الشعور بجديّة الحياة وأهميّة كل حركة فيها، باعتباره الوسيلة الوحيدة لبلوغ الإنسان أقصى درجات الكمال الإنساني في هذه الحياة الدنيا، في فصل بعنوان: (سبيل السلام):

(يختلف إدراك العبادات في الإسلام عما هو في كل دين آخر.. إن العبادات في الإسلام ليست محصورة في أعمال من الخشوع الخالص، كالصلاة والصيام مثلاً، ولكنها تتناول (كل) حياة الإنسان العملية أيضاً.. وإذا كانت الغاية من حياتنا على العموم (عبادة الله) فيلزمنا حينئذ ضرورة، أن ننظر إلى هذه الحياة في مجموع مظاهرها كلها على أنها تبعّة أدبيّة، متعددة النواحي، وهكذا يجب أن تأتي أعمالنا كلها.. حتى تلك التي تظهر تافهة.. على أنها عبادات، وأن نأتيها بوعي، وعلى أنها تؤلّف جزءاً من ذلك المنهاج الشامل الذي أبدعه الله.. تلك حال ينظر إليها الرجل الاعتيادي على أنها مثل أعلى بعيد.. ولكن أليس من مقاصد هذا الدين أن تتحقّق المُثل العليا في الوجود الواقع؟!)

إن موقف الإسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل! إنه يعلمنا.. أولاً.. أن عبادة الله الدائمة، والمتمثّلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعدّدة جميعها هي معنى الحياة نفسها!

العبادة لا تقتصر على الشعائر التعبيرية المعروفة ولكن تشمل كل حركة وكل عمل ترتقي به الحياة ويسعد به الناس

ويعلمنا.. ثانياً.. أن بلوغ هذا المقصد يظل مستحيلًا ما دمنا نقسم حياتنا إلى قسمين اثنين: حياتنا الروحية، وحياتنا المادية! يجب أن تقترن هاتان الحياتان في وعينا وفي أعمالنا، لتكون (كلًا) واحداً متسقاً!

إن فكرتنا عن وحدانية الله يجب أن تتجلّى في سعينا للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة في حياتنا.. هناك نتيجة منطقية لهذا الاتجاه.. هي فرق آخر بين الإسلام وسائر النظم الدنيوية المعروفة!

ذلك أن الإسلام.. على أنه تعليم.. لا يكتفي بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلوات المتعلقة بما وراء الطبيعة، فيما بين المرء وخالقه فقط، ولكن يعرض أيضاً.. بمثل هذا التوكيد على الأقل.. للصلوات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية!

إن الحياة الدنيا لا ينظر إليها على أنها صدفة اعتيادية فارغة، ولا على أنها طيف خيال للأخرة، التي هي آتية لا ريب فيها، من غير أن تكون منطوية على معنى ما، ولكن على أنها (وحدة) إيجابية تامة في نفسها، والحق وحدة لا في جوهره فحسب.. بل في الغاية أيضاً!

من أجل ذلك كان خلقه (وحدة) في الغاية بكل تأكيد.. وعبادة الله في أوسع معانيها.. كما شرحنا آنفاً.. تؤلّف في الإسلام معنى الحياة الإنسانية!

هذا الإدراك وحده يرينا إمكان بلوغ الإنسان الكمال.. في إطار حياته الدنيوية الفردية.. ومن بين سائر النظم الدنيوية نرى الإسلام.. وحده.. يعلن أن الكمال الفردي ممكن في الحياة الدنيا!

إن الإسلام لا يؤجل هذا الكمال إلى ما بعد إماتة الشهوات الجسدية، ولا هو يعدنا بسلسلة متلاحقة الحلقات من (تناسخ الأرواح) على مراتب متدرجة.. كما هو الحال في الهندوكية.. ولا هو يوافق البوذية التي تقول: إن الكمال والنجاة لا يتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية وانفصام علاقاتها الشعورية من العالم!

كلًا، إن الإسلام يؤكد أن الإنسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية، وذلك بأن يستفيد استفادة تامة من وجوه الإمكان الدنيوي في حياته (هو)!